ظلال على جسر لشبونة

بودة كنزة

إلى كل من انتظر على رصيف خاطئ.

إلى كل من ظن أن الحب تخلى عنه، بينما كان الحب يموت وهو في طريقه إليه

وإلى لشبونة، التي تعلمنا أن الضباب لا يخفي المدينة، بل يجعلها أجمل.

أرشيف الموتى

لشبونة لا تمطر مثل باقي المدن. هي تبكي.

الضباب يأتي من المحيط الأطلسي في الساعة الرابعة عصرا، يزحف فوق التلال السبع، يغطي أسطح البيوت القرميدية، ويدخل من شقوق النوافذ الخشبية في مبنى الأرشيف الوطني. هذا المبنى الذي يسمونه رسميا كان ديرا قبل 300 سنة، وما زال يحتفظ ببرودة الرهبان. Arquivo Nacional

أنا أعمل هنا منذ ثمانية أشهر.

اسمي إيلينا ريبس، عمري 27 سنة، إسبانية، من مدريد. مرممة وثائق،وظيفتي أن أجعل الموتى يتكلمون بشكل أوضح. أصلح رسائل غرقت في فيضان 1967، ألصق حواف خرائط مزقها الفئران، أزيل العفن عن عقود زواج لم يعد أصحابها أحياء. اخترت هذا القبو لأن الورق لا يكذب،الناس تكذب.

بعد خطوبتي الفاشلة من(دانييل)، لم أعد أطيق أن ينظر إلي أحد ويقول "أحبك". أريد شيئا يبقى. الورق يبقى حتى لو احترق طرفه.

في ذلك الثلاثاء، طلبت مني السيدة (ألما)، مديرة الأرشيف، شيئا معتادا: "إيلينا، هناك غرفة في الطابق 3– لم نفتحها منذ إضراب عمال البريد في التسعينيات. فيها صناديق مخصصة للإتلاف. تأكدي أن لا شيء فيها ذا قيمة تاريخية قبل أن نرسلها للمحرقة."

الطابق 3– لم يكن له كهرباء جيدة. مصباح واحد أصفر يتدلى ويصدر طنينا. الرائحة هناك لم تكن رائحة ورق، بل رائحة حديد صدئ وماء راكد.

كان هناك 40 صندوقا معدنيا رماديا. كلها مقفلة ومكتوب عليها بقلم أسود سميك:

PARA DESTRUIR.

فتحت الأول، فواتير كهرباء 1995، الثاني، مجلات إباحية قديمة صادرتها الجمارك ، و الثالث فارغ وفيه عش فأر.

وصلت للصندوق رقم 17 كان مختلفا.

كان أثقل. الصدأ أكله من الأسفل حتى أن الماء تسرب لداخله وترك بقعا بنية على كل شيء. لم يكن مقفلا، فقط عالقا، ضربته بقدمي،انفتح.

لم يكن فيه أوراق رسمية. كان فيه علبة بسكويت معدنية قديمة، من تلك التي كانت الجدات يضعن فيها أزرار الخياطة، ففتحتها.

اثنتا عشرة رسالة. مربوطة بشريط مطاطي أصفر متآكل، كلها بنفس الخط.

خط إنجليزي متعجل، كتب بقلم حبر أسود. كلها موجهة لنفس الشخص:

To: Clara M.

Rua dos Remédios, 22 – Alfama, Lisboa

لا طوابع. لا أختام بريد. كأن أحدا كتبها ووضعها في جيبه ولم يرسلها أبدا.

أخذت الأولى. الورق لم يكن ورق رسائل،كان ورق نوتات موسيقية. أسطر خمسة، ومفاتيح موسيقية مطبوعة في الخلفية، والرائحة... رائحة دخان سجائر قديمة.

قرأت:

"كلارا،

لا أعرف كيف أكتب هذا بدون أن أسمع صوت التشيلو في الطابق السفلي. هل تذكرين عندما قلتِ أن عزفي يشبه البكاء؟ كنتِ تضحكين. أنا لا أضحك الآن.

منذ أن توقفتِ عن النزول لشرب القهوة أمام بابي، الغرفة فوق بيتكم أصبحت باردة جدا. حتى لشبونة أصبحت باردة.

سأترك لكِ هذه الرسالة تحت مزهريتك الزرقاء كما اتفقنا.

مي."

يدي ارتجفت.

ليست رسالة حب عادية. هذه رسالة خوف.

فككت الشريط المطاطي وفتحت الأخيرة. رقم 12. كانت أقصرهم، ومبللة كأنها كتبت بسرعة تحت المطر.

"كلارا، هذه آخر مرة أحمل حقيبة واحدة وتذكرة باتجاه واحد لا أحمل تشيلو.

سأترك الموسيقى إذا أتيتِ القطار من روسيو الساعة السادسة اليوم، 15 أكتوبر، الرصيف 3 سأعرفك من وشاحك الأزرق، إذا لم تأتي، سأركب وأختفي،سأفهم أنك اخترت حياتك الآمنة.

مي."

15أكتوبر. لا يوجد سنة، لكن الورق، الحبر، عنوان Alfama...

بحثت في سجلات الوفيات في الأرشيف.

كتبت في محرك البحث القديم Clara M. Rua dos Remédios :

ظهرت نتيجة واحدة فقط. من شهرين. عنوان مختلف. ليست هي.

رميت تلك النتيجة. هذه ليست (كلارا) التي أبحث عنها.

فتحت سجل الوفيات الورقي ،السجل الذي لدينا نسخة من كل جريدة محلية فيه. قلبت الصفحات الأخيرة.

وهناك وجدتها. في جريدة أول أمس.

نعي صغير، في زاوية الصفحة 7:

" وفاة السيدة (كلارا مونتيرو) 68 عاما في منزلها في Alfama ، عاشت طوال حياتها في

نفس المنزل. يبقى ابنها الوحيد (غابرييل مونتيرو).

نظرت للرسالة الأخيرة مرة أخرى، الساعة السادسة، الرصيف 3.

(كلارا) ماتت وهي تظن أن أحدا لم ينتظرها؟ أم أنها هي التي لم تذهب؟

أغلقت علبة البسكويت وأخذتها تحت معطفي. كان هذا ممنوعا، لكن لأول مرة منذ 8 أشهر، شعرت أن ورقة قديمة تريد مني أن أنقذها، لا أن أرممها فقط.

خرجت من الطابق 3–، الترام الأصفر رقم 28 مر من أمام الأرشيف بصريره المعتاد، يصعد التل بصعوبة. الضباب أصبح كثيفا لدرجة أنني لا أرى المحيط.

كنت أعرف عنوان بيت كلارا، وكنت أعرف أن عزاءها ما زال يُقام حسب عادة

أهل Alfama ثلاثة أيام، واليوم هو الثالث.

بيت بلا حب

Rua dos Remédios 22 لم يكن بيتا، كان جرحا مفتوحا في التل.

بيت من البلاط الأزرق المتشقق، تحته مخبز مغلق رائحة خميرة قديمة تخرج من جدرانه الباب الخشبي كان مفتوحا، وصوت بكاء امرأة عجوز يأتي من الداخل.

دخلت.

الصالة صغيرة، مظلمة، مليئة بصور لعائلة واحدة فقط: امرأة شابة جميلة بوشاح أزرق، نفس المرأة وهي عجوز، ورجل بملامح قاسية يرتدي زي موظف بريد، وولد صغير لا يبتسم في أي صورة.

كان هناك حوالي عشر نساء عجائز يرتدين الأسود، وهن يهمسن وفي الوسط، رجل واحد واقف بجانب النافذة، يعطي ظهره للجميع.

طويل،شعره أسود قصير فوضوي ، ولحية خفيفة سوداء لم يحلقها،يلبس قميصا أسودا وسروالا أسود، ، ويداه في جيوبه لم يكن يبكي. كان ينظر للمطر الذي يضرب زجاج النافذة.

هذا هو غابرييل مونتيرو.

اقتربت منه كان عليه أن يسمع صوتي فوق همس العجائز.

"سيد مونتيرو؟"

استدار عيناه كانت بلون لشبونة في الشتاء رمادية، متعبة، وغاضبة:

"نعم؟"

".أنا... أنا من الأرشيف الوطني اسمي إيلينا وجدت شيئا يخص والدتك رسائل ،أظن أنه يجب أن تراها"

قلتها بسرعة وأخرجت علبة البسكويت من حقيبتي.

لم يلمسها في البداية فقط قرأ العنوان: To Clara M

فتحها، رأى الرسائل، تغير وجهه. ليس حزنا، بل اشمئزاز.

"أين وجدتِ هذه ؟" قال بصوت منخفض حتى لا تسمعه العجائز، لكنه كان حادا كالسكين.

"في صندوق معدني في الأرشيف كانت مخصصة للإتلاف تعود لعام 1998 مرسلة من شخص يدعى ي."

قاطعني.

"أمي لم تغادر هذا البيت منذ عشرين سنة لم يكن في حياتها رجل غير أبي، و أبي كان مدير مكتب البريد هنا كان رجلا محترما. لا أريد قصص حب رخيصة عن أمي بعد موتها خذيها واحرقيها مع باقي الأوراق."

وأغلق العلبة بعنف وأعادها لي.

توقعت هذا لكنني لم أتوقع ما فعله بعد ذلك.

امرأة عجوز نادت: " غابرييل تعال، هذه السيدة كانت تحب أمك كثيرا."

رد عليها وهو لا يزال ينظر إلي: "أمي لم يحبها أحد، دونا إيزابيل ولم تحب أحدا هذا هو سبب بقاء هذا البيت باردا حتى في الصيف."

كانت تلك الجملة قاسية لدرجة أن العجائز سكتن.

شعرت بالدم يصعد لوجهي. لم يكن غضبا عليه بل على نفسي لأنني فهمته، أنا أيضا قلت نفس الجملة عن نفسي عندما هربت من مدريد.

قلت له بهدوء:"أنت تظن أنك تحميها بهذه الطريقة ،لكن ماذا لو كانت هذه الرسائل هي الدليل الوحيد أن أمك كانت تريد أن تهرب من هذا البرد؟ ماذا لو أن أحدا أحبها حقا وأنت لا تعرف؟"

نظر إلي طويلا، المطر كان يزداد قوة،صوت الترام الأصفر يمر من الزقاق الضيق ثم فعل شيئا لم أتوقعه

أخذ رسالة واحدة فقط من العلبة " الرسالة الأخيرة، رسالة الساعة السادسة " وطواها ووضعها في جيب قميصه الأسود.

وقال: "الساعة الآن الخامسة والنصف محطة روسيو تبعد عشر دقائق سيرا من هنا نزولا

إذا كانت هذه القصة حقيقية، فأنا سأكون هناك على الرصيف 3 الساعة السادسة. إذا لم تأتي، سأفهم أنكِ مجرد فتاة إسبانية تشعر بالملل في أرشيف مدينة ليست مدينتها."

لم يكن يتحدى كلارا كان يتحداني أنا.

خرج من البيت تحت المطر بدون مظلة. ترك العجائز وترك عزاء أمه.

نظرت للعلبة في يدي 11 رسالة متبقية ورسالة واحدة في جيبه.

الساعة 17:35.

ركضت خلفه. ليس لأنه طلب مني ذلك بل لأنني لأول مرة منذ خطوبتي الفاشلة، شعرت أن هناك قطارا على وشك أن يفوتني إذا لم أركض.

التلال في لشبونة حادة. كنت أركض وأنزلق على الحجارة المبللة. (غابرييل) كان يمشي بسرعة، لا يركض، كأنه يعرف أن القطار لن ينتظر.

من بعيد، رأيت محطة روسيو مبناها الجديدي الفاخر، بابه المزخرف كقصر من ألف ليلة وليلة والساعة الكبيرة فوقه تشير إلى 17:52.

الرصيف رقم 3

محطة روسيو من الخارج تبدو كأنها مسجد أو قصر ملكي، ليس محطة قطارات. واجهتها مليئة بالزخارف والنوافذ الصغيرة كخلية نحل لكن من الداخل، هي حزن خالص. سقف حديدي عالٍ، ورائحة زيت قطارات قديم، وصوت مذيع يعلن عن تأخيرات لا تنتهي.

كنت ألهث. حذائي الرياضي الأبيض أصبح أسود من طينAlfama.

شعري الإسباني المجعد التصق بوجهي من المطر.

(غابرييل)كان يقف بالفعل في وسط القاعة الرئيسية. لم يركض. الماء يقطر من شعره الأسود على قميصه الأسود. بدا كتمثال. لم ينظر إلي عندما وصلت، كان ينظر للوحة القطارات الإلكترونية.

لوحة قديمة، صفراء. كل القطارات تذهب إلىSintra.

قلت وأنا أحاول التقاط أنفاسي: "لماذا جئنا هنا؟ القطار في الرسالة كان سنة 1998."

قال دون أن ينظر إلي: "لأن أمي كانت تكذب. قالت لي مرة واحدة فقط، عندما كنت في العاشرة. كنا نمر من هنا. قالت لي: لا تنتظر أحدا في محطة روسيو. لا أحد يأتي في الوقت المحدد. كنت أظنها تتحدث عن أبي."

ثم أخرج الرسالة رقم 12 من جيبه. الورقة المبللة. قرأها بصوت عال، وسط ضجيج المحطة.

صوته كان مهندس صوت، عميق، بارد، لكنه يرتجف عند كلمة "الوشاح الأزرق."

".سأعرفك من وشاحك الأزرق"

طوى الرسالة.

"أمي كان لديها وشاح أزرق، كانت تخفيه في صندوق خياطتها. كنت أراها تمسكه أحيانا عندما تظن أن لا أحد يراها. لم تلبسه أبدا أمام أبي."

نظر إلي أخيرا. عيناه لم تعد غاضبة، كانت خائفة.

"من هو ي. ؟"

لم أجب،سحبته من يده. كانت يده باردة كالحديد.

"تعال. الرصيف 3"

الرصيف 3 في محطة روسيو هو الرصيف الأقدم. ليس فيه قطارات حديثة، بل قطارات قديمة تذهب للقرى. في نهايته مقهى صغير مغلق منذ سنوات، ومقاعد خشبية مكسورة.

وقفنا هناك. الساعة فوقنا تشير الآن إلى 17:59.

لا يوجد أحد فقط عامل نظافة عجوز يدفع عربة.

ثم حدث شيء غريب.

العامل العجوز توقف عندنا. نظر لغابرييل، نظر لي، ثم لغابرييل مرة أخرى

قال بالبرتغالية: "أنت ابن كلارا؟"

غابرييل تجمد.

"كيف عرفت؟"

العجوز ابتسم، وكشف عن أسنان ناقصة وقال:"نفس وجهها عندما كانت تنتظر، نفس العناد."

التفت إلي العجوز: "أنتِ... أنتِ تلبسين نفس لون وشاحها."

لم أكن ألبس وشاحا أزرق،كنت ألبس معطفا بيج.

لكن(غابرييل) فهم، أمسك ذراعي.

"متى؟" سأل العجوز بصوت مكسور:"متى انتظرت أمي هنا؟"

العجوز جلس على المقعد الخشبي المكسور. تنهد:

"15أكتوبر 1998 لن أنساه. كان يوما ممطرا مثل اليوم. كنت أعمل هنا منذ 30 سنة. جاءت سيدة جميلة، بفستان أخضر ووشاح أزرق سماوي. كانت تحمل حقيبة صغيرة. وقفت هنا، على هذا الرصيف

بالضبط، من الساعة الخامسة حتى الساعة التاسعة ليلا. لم تتحرك. كلما جاء قطار، كانت تقف على أطراف أصابعها وتنظر داخل النوافذ ثم يذهب القطار، وتعود للانتظار."

قلبي توقف.

"هل... هل جاء أحد إليها؟"سألت.

العجوز هز رأسه: "لا، لا أحد جاء. في التاسعة، جاء زوجها مدير البريد، كان رجلا قاسيا. أخذها من ذراعها بقوة. لم تقل شيئا، فقط بكت بصمت، وتركت وشاحها هنا. على هذا المقعد. بقيت أحتفظ به في غرفة المفقودات لمدة سنة، ثم أخذته زوجتي."

غابرييل جلس على الأرض. لم يهتم بماء الرصيف. وضع رأسه بين يديه.

أمه انتظرت. أمه لم تخن. أمه كانت تحب.

لأول مرة، فهم لماذا كان بيتهم باردا.

لم يكن لأن أمه لم تحب، بل لأنها أحبت كثيرا وانتظرت رجلا لم يأت.

العجوز نهض ليذهب، قبل أن يذهب، قال جملة جعلت الدم يتجمد في عروقي.

"الغريب... في ذلك اليوم، قطار الساعة السادسة من**Sintra** لم يصل أبدا. قالوا في الأخبار أنه خرج عن السكة قرب**Benfica**،مات فيه أربعة أشخاص. أجنبي منهم عازف كمان أو شيء من هذا القبيل."

تشيلو. ليس كمان، تشيلو.

نظرت لغابرييل. كان ينظر إلي.

لم يكن ي، قد تخلى عن (كلارا).

ي. مات وهو في طريقه إليها.

ورق النوتات

لم نعد لبيت العزاء، ذهبنا لشقتي الصغيرة فيMouraria.

شقتي فوق محل فادو، صغيرة، مليئة بالكتب وصناديق الأرشيف التي آخذها للبيت سرا.

(غابرييل) دخل وهو يرتجف ليس من البرد. خلع معطفه الأسود الطويل، وبقي واقفا في الوسط كأنه لا يعرف أين يجلس، كأنه خائف أن يلمس شيئا يخصني.

قلت: "اجلس على الأرض مثلي، الكراسي عندي باردة."

جلسنا على الأرض، ظهرنا للحائط. وضعت مصباحا أصفر صغيرا بيننا. في الخارج، لشبونة كلها ضباب ومطر وصوت الترام الأصفر يمر بعيدا.

فتحت العلبة مرة أخرى 11 رسالة.

قلت له: "يجب أن نقرأها بالترتيب، إذا كان يوهان مات في القطار، فهذه الرسائل هي حياته كلها."

نظر إلي طويلا. لم ينظر إلى العلبة، نظر إلي أنا.

قال: "أنتِ تقولينها كأنها صلاة."

لم أعرف ماذا أجيب. أنا مرممة، لا أحد ينظر إلي وأنا أتكلم عن الورق كأنه شيء مقدس. هو فعل.

فتحنا الرسالة رقم .2

"كلارا،

شكراً على القهوة التي تركتها أمام بابي الساعة السابعة صباحا وكانت ما زالت دافئة. كيف عرفتِ أنني لا أنام؟

الليلة سأعزف لكِ وحدكِ إذا سمعتِ التشيلو يبكي الساعة العاشرة، فهو لكِ.

ي."

(غابرييل) ابتسم لأول مرة، ابتسامة حزينة جدا.

"أمي كانت تصحى الساعة السادسة كل يوم لتخبز الخبز. حتى بعد أن أغلق المخبز."

وهو يبتسم، لاحظت لأول مرة أن له غمازة واحدة فقط على اليسار، لا تظهر إلا عندما يكون حزينا.
أردت أن أقول له ذلك، لكنني قرأت الرسالة التالية بسرعة حتى لا يراني أنظر.

الرسالة رقم 3 كانت أطول. يده كانت أكثر ثقة.

"كلارا، أنتِ تضحكين على لكنتي الإنجليزية تقولين أنني أقول I love you كأنها I leave you .

ربما أنت محقة. أنا ألماني، جئت إلى لشبونة لأنني هربت. احترق مسرح في برلين وأنا كنت أعزف. قالوا إنها غلطتي. لم تكن غلطتي. لكنني هربت.

أنتِ الوحيدة التي لا تنظر إلي كأنني مجرم. أنتِ تنظرين إلي كأنني رجل.

يوهان."

الاسم الكامل ظهر أخيراً "يوهان".

"يوهان آدلر"

(غابرييل) أخذ هاتفه، كتب الاسم. إشارة الإنترنت ضعيفة في شقتي، لكنه وجد شيئا.

"يوجد أرشيف لأوبرا لشبونة على الإنترنت. موسم 1997–1998. عازف تشيلو ضيف:

".Johann Adler, Berlin

وضع الهاتف جانبا.

(غابرييل): "أمي كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية. أبي كان يكرهها كان يقول إنها ضوضاء أغنياء."

اقترب مني ليريني الشاشة، ركبته لامست ركبتي. لم يبتعد. بقيت أنا أنظر إلى الشاشة، لكنني كنت أشم رائحة معطفه المبتل بالمطر. قلت لنفسي: "ركزي على يوهان، ليس على غابرييل."

الرسالة رقم 4 كانت مختلفة ورقها مجعد كأنها كتبت بغضب.

"كلارا، لا تخرجي معه اليوم أرجوك.

رأيته يتبعكِ أمس عندما ذهبت للسوق. يراقب رسائلنا. أخاف عليك. أخاف على نفسي.

إذا كان يحبك، لماذا يخاف من رسالة؟

مي."

نظرت لغابرييل،وجهه أصبح قاسيا مرة أخرى.

"أبي... كان مدير مكتب البريد. كان يستطيع أن يفتح أي رسالة."

فتحت الرسالة رقم 5 بسرعة،كانت مرسلة بعدها بيومين فقط.

"كلارا، سامحيني على رسالتي الأخيرة كنت غيورا وسخيفا، أعرف أنك متزوجة وأعرف أنك لن تتركي ابنك الصغير. أنا لا أطلب منك أن تتركه أنا أطلب منك أن تأتي معي وتأخذيه معنا. برلين مدينة جميلة للأطفال

سأعزف لك الليلة أيضا.

مي."

عما السكوت بيننا طويلا.

خارجا، مطر لشبونة توقف سمعنا صوت سيدة تغني الفادو في المحل تحتنا أغنية عن بحار لم يعد.

(غابرييل) قال فجأة: "ابنها الصغير... أنا. كان يتحدث عني،كان يريد أن يأخذني معهما."

قالها وهو ينظر إلى يديه. لأول مرة لم يكن ساخرا،كان طفلا ضائعا. وجدت نفسي أريد أن أمسك يده وأقول له أنا هنا. لم أفعل، لكنني قلت بصوت منخفض جدا: "لو كنت مكان أمك، كنت سآخذك وأهرب أيضا."

رفع رأسه ونظر إلي بدهشة. كأن أحدا لم يقل له من قبل أن أمه كانت شجاعة، وليست خائنة

لم يكن أبوه هو الشرير الوحيد في القصة. (يوهان) أيضا كان يريد أن يأخذ طفلا من أبيه.

القصة أصبحت معقدة، ليست أبيض وأسود.

أخذت الرسالة رقم 6، قرأتها أنا بصوت عال هذه المرة.

"بدأت أخاف زوجك ينظر إلي بطريقة غريبة عندما أمر بجانب المخبز. هل أخبرته؟ هل يجب أن أتوقف؟"

(غابرييل) وقف و ذهب للنافذة، فتحها. هواء المحيط البارد دخل.

قال دون أن ينظر إلي: "لا، لا يجب أن يتوقف. لو توقف، لما كنا هنا الآن."

استدار.

"إيلينا، أبي مات قبل 5 سنوات، أمي ماتت قبل شهرين،أنا عدت للشبونة لأبيع هذا البيت البارد وأعود لبرلين. لا أريد أن أعرف أن أمي كانت تعيسة. أريد أن أتذكرها باردة، البارد لا يتألم."

اقتربت منه لأول مرة، لم أره كرجل أسود ساخر،رأيته كطفل وجد رسائل تثبت أن أمه كانت تحب رجلا غير أبيه، وأنها انتظرت 4 ساعات تحت المطر، وأن أباه جرها من ذراعها أمام الناس.

قلت: "البارد يتألم أكثر لأنه يتألم وحده."

قال: "أنتِ أول واحدة تقول لي هذا."

لم يقل شكرا، فقط نظر إلي كأنه يحفظ وجهي.

مد يده، ليس لي، بل لعلبة الرسائل و أخذ الرسالة رقم 7 وفتحها.

كانت فارغة من الداخل لا يوجد إلا بقعة حبر كبيرة في الوسط، كأن الكاتب بكى فوقها

وفي الأسفل، جملة واحدة:

"لم أعد أعرف كيف أكتب بدونك"

(غابرييل) أعطاني الورقة ،أصابعنا تلامست لأول مرة.

لم تكن لمسة سريعة. بقيت أصابعه فوق أصابعي لثانيتين. يده كانت باردة، يدي كانت دافئة من المصباح.
قال بهمس: "يداكِ دائما دافئتان."

قلت: "لأنني أمسك الورق طوال اليوم."

قال: "لا، لأنكِ أنتِ دافئة."

تلك الليلة، لم ينم أحد منا، بقينا نقرأ الرسائل الباقية، كل رسالة تجعلنا نكره أباه أكثر، ونحب أمه أكثر، ونحب يوهان أكثر، ونخاف على بعضنا أكثر.

وفي الساعة الثالثة فجرا، عندما وصلنا للرسالة رقم 11، وجدنا شيئا لم نكن نتوقعه.

تذكرة قطار قديمة. صفراء. ممزقة من النصف

Sintra –> Rossio

15 Oct 1998 – 18:00

Carruagem 2 – Lugar 14

تذكرة يوهان التي لم يستخدمها أبدا لأنه مات قبل أن يصل.

غابرييل حمل التذكرة ووضعها في جيبه بجانب رسالة الساعة السادسة.

وقال: "غدا، سنذهب ل A Brasileira نفس الطاولة التي كان يجلس عليها يوهان،و سنقرأ الرسالة رقم 11 بصوت عال أريد أن يسمعه الناس."

مقهى A Brasileira

لا اعلم حتى كيف اخذني النوم.

(غابرييل) نام على أرضية شقتي، ظهره للحائط، والتذكرة الصفراء الممزقة ورسالة الساعة السادسة في قبضته كأنه يخاف أن يهربا.

استيقظت الساعة الثامنة صباحا على صوت الترام وهو يحاول صعود تل Mouraria

لشبونة بعد المطر لها رائحة مختلفة رائحة بلاط مبلل، وقهوة محمصة، وملح قادم من نهر تاغوس.

(غابرييل) كان مستيقظا بالفعل، يشرب قهوة سوداء وينظر من نافذتي الصغيرة. من هنا نرى جزءا من المدينة، أسطحا حمراء وضبابا ينسحب ببطء نحو المحيط.

قال دون أن يلتفت: "أبي كان يخاف."

التفت إليه.

غابرييل: "طوال الليل أفكر أبي لم يكن غيورا فقط،كان موظف بريد. كان يعرف القانون. فتح رسائل الناس جريمة، حتى في 1998. لماذا خاطر بوظيفته؟"

أخرجت الرسالة رقم 3. تلك التي يتحدث فيها يوهان عن الحريق في برلين.

"لأنه ظن أنه يحميها؟"

هز رأسه: "لا لأنني وجدت شيئا في جيب معطف أبي القديم قبل أن أبيعه. قبل شهر لم أفهمه وقتها."

ذهب لحقيبته السوداء وأخرج ورقة مطوية، مصفرة، كانت قصاصة من جريدة ألمانية

Bild Zeitung 1997.

عنوان كبير بالألمانية وصورة مسرح محترق.

لم أفهم الألمانية، لكن غابرييل ترجم، وهو مهندس صوت عاش 10 سنوات في برلين:

"حريق متعمد يدمر مسرحKreuzberg عازف التشيلو يوهان أدلر 27 عاما هو المشتبه به الرئيسي الشرطة تبحث عنه. شاهد يقول إنه كان يدخن قرب الستائر."

قلت: "يا إلهي..."

قال غابرييل: "أبي لم يكن يفتح الرسائل غيرة. أبي كان يظن أن أمي على علاقة بمجرم هارب. مجرم قد يحرق بيتنا ونحن ننام. كان يحمينا بطريقته القذرة."

القصة انقلبت مرة أخرى. والد (غابرييل) لم يعد وحشا.أصبح أبا خائفا.

"لكن يوهان كان بريئا، أليس كذلك؟" سألته.

غابرييل: "لا أعرف، هذا ما سنعرفه اليوم."

مقهىA Brasileira في حيChiado ليس مقهى عاديا ،هو أسطورة واجهته ضيقة، داخله خشب داكن و مرايا كبيرة وطاولات رخامية صغيرة، تمثال الشاعر فرناندو بيسوا يجلس أمام المقهى، ينتظر أحدا يلتقط صورة معه.

دخلنا الساعة العاشرة صباحا. المقهى كان نصف فارغ، عجائز يقرأون الجرائد، وسياح يلتقطون صورا

غابرييل قال للنادل: "نريد الطاولة رقم 7."

النادل، رجل في الستين، نظر إلينا باستغراب. "الطاولة رقم 7 محجوزة دائما لا نجلس عليها أحدا."

غابرييل:"لماذا؟"

النادل:"لأن صاحب المقهى قال ذلك منذ 25 سنة."

طلب (غابرييل) من النادل أن نقابل صاحب المقهى.

جاء رجل عجوز جدا ،يمشي بعكاز، يلبس سترة قديمة. اسمه السيد (أليدا)،عمره 84 سنة. عندما رأى علبة البسكويت المعدنية في يدي، توقف.

قال بالبرتغالية بلهجة لشبونية ثقيلة: "هذه العلبة... كانت لكلارا."

غابرييل تجمد.

السيد (أليدا) جلس بصعوبة على الطاولة رقم 7 أشار لنا أن نجلس.

قال: "كلارا كانت تأتي هنا كل يوم ثلاثاء وخميس، الساعة 11 تطلب قهوة واحدة وحليب وتجلس هنا، تنظر للشارع. لم تكن تنتظر الترام. كانت تنتظر أن يمر رجل طويل، أشقر، يحمل حقيبة تشيلو كبيرة سوداء. عندما يمر، كانت تبتسم، فقط تبتسم. لم يتكلما أبدا هنا."

"قلت: "يوهان آدلر؟

أليدا هز رأسه: "الألماني، نعم،كان يستأجر غرفة فوق مخبز زوجها. كان ولدا مهذبا جدا، لكنه حزين. كان يأتي هنا ويطلب ماء فقط، لأنه لا يملك ثمن القهوة ويجلس في الطاولة المقابلة. طاولة رقم 8،وكانا ينظران لبعضهما في المرآة لا يتكلمان فقط في المرآة."

نظرت للمرآة الكبيرة أمامنا، رأيت انعكاس غابرييل وأنا. فهمنا.

حب كامل حدث في مرآة مقهى.

أليدا أكمل: "في أحد الأيام، في أكتوبر 1998، جاءت كلارا بدون وشاحها الأزرق كانت تبكي. جلست هنا 3 ساعات طلبت قهوتين. واحدة لها وواحدة فارغة أمامها. قلت لها: هل تنتظرين أحدا؟ قالت: نعم، رجلا لن يأتي ثم تركت لي هذه."

نهض بصعوبة، ذهب لخزانة خشبية قديمة خلف البار، وأخرج إطارا خشبيا صغيرا مقلوبا، مغطى بالغبار.

قلبه.

كانت صورة فوتوغرافية صغيرة، بالأبيض والأسود، مطبوعة بشكل سيء.

رجل طويل أشقر بملامح حادة يحمل تشيلو، وامرأة شابة بوشاح أزرق سماوي تضحك، ورأسهما متقاربان جدا،خلفهما نهر تاغوس.

في ظهر الصورة، بخط يوهان:

Clara & Y. Cais das Colunas – Setembro 1998

"قبل أن أتعلم كيف أقول أحبك بدون لكنة ."

كانت أول وآخر صورة لهما معا.

(غابرييل) أمسك الصورة بيدين ترتجفان لأول مرة، رأى أمه تضحك بتلك الطريقة. لم تكن باردة،كانت حية.

قال (أليدا)وهو ينظر لغابرييل: "أنت تشبهه. ليس والدك مدير البريد تشبه الألماني،نفس طريقة الجلوس،نفس الحزن في الكتفين.

سكتنا.

صوت ماكينة القهوة، وصوت ملاعق .

أخرجت الرسالة رقم 11 من العلبة، تلك التي وجدنا فيها التذكرة.

قرأها (غابرييل) بصوت عال هذه المرة، ليس لي، بل للطاولة الفارغة رقم 8، حيث كان يوهان يجلس.

كلارا،"

غدا الساعة السادسة، إذا جئتِ، سأترك كل شيء، سأبيع التشيلو. سأتعلم كيف أخبز الخبز مثلك. سأتعلم كيف أكون رجلا عاديا لا يهرب، إذا لم تأتي، سأعزف مرة أخيرة في محطة روسيو، ثم أركب.

لا تخافي من زوجك أنا سأتكلم معه كرجل. سأقول له إنني لست مجرما. سأقول له إنني أحب زوجته لكنني أحترم خوفه عليها.

ارتدي وشاحك الأزرق. سأعرفكِ من بين كل نساء لشبونة

يوهان"

عندما انتهى، كان السيد (أليدا) يبكي.

قال: "هو جاء وتكلم مع زوجها، رأيتهما في المخبز، مدير البريد كان يصرخ و الألماني كان هادئا. ثم خرج الألماني وهو يحمل حقيبته."

نظر لغابرييل.

"زوجها... والدك... لم يكن شريرا يا بني. بعد أن ذهب الألماني، جلس والدك على الأرض في المخبز وبكى. قال لي: لا أريد أن أخسرها هي كل شيء أملكه، لا أريد لابني أن يكبر بدون أم."

(غابرييل)وضع رأسه على الطاولة الرخامية الباردة. لم يبك بصوت كتفاه فقط اهتزتا.

أنا لم ألمسه، تركته.

لأنني فهمت الآن أن هذه ليست رواية عن يوهان وكلارا فقط.

هذه رواية عن رجلين أحبا نفس المرأة بطريقتين مختلفتين. واحد حبها بأن يتركها تذهب، والآخر حبها بأن يحبس رسائلها.

وكلاهما خسرها.

بعد ساعة، خرجنا من المقهى. السيد (أليدا) أهدانا الصورة. وقال: "الطاولة رقم 7 أصبحت لكم الآن."

كنا نمشي في شارعChiado المنحدر، باتجاه نهر تاغوس. غابرييل يحمل الصورة وعلبة البسكويت.

قال فجأة: "إيلينا، أريد أن أذهب لBenfica مكان خروج القطار عن السكة."

قلت: "لماذا؟"

قال: "لأنني أريد أن أعرف هل مات يوهان وهو يكره أمي لأنه ظن أنها لم تأت، أم مات وهو يحبها لأنه ظن أنها ستأتي."

نظرت له، و الترام الأصفر مر بجانبنا، مليء بالسياح.

قلت: "وماذا عنا؟"

توقف، نظر إلي،لأول مرة منذ قابلته في العزاء، لم يكن يلبس قناع الرجل البارد الساخر.

قال: "أنتِ هربتِ من مدريد لأن رجلا كذب عليكِ. وأنا هربت من لشبونة لأنني ظننت أن أمي لم تحبني. ربما نحن الاثنين ننتظر في محطة خاطئة."

ثم مد يده، ليس ليمسك يدي ، بل ليضع وشاحا أزرق سماويا حول رقبتي.

كان وشاح كلارا.

الذي احتفظ به عامل المحطة وأعطاه لزوجته، والذي اشتراه السيد (أليدا) من زوجة العامل قبل 10 سنوات واحتفظ به في خزانته، والذي أعطاه لنا الآن.

أصابعه كانت باردة جدا، فبقيت ثانية أطول على رقبتي لتدفئني.

كان مازال يحتفظ برائحة قهوة و مطر.

قلت له وضحكت لأخفي ارتباكي: "يليق بي؟"

قال وهو ينظر إلي كأنه يراني لأول مرة بدون كتب وأرشيف: "كان يليق بها وهي تنتظر. ويليق بكِ وأنتِ لا تنتظرين أحدا."

المكان الذي لا يصل إليه الترام Benfica

Benfica ليست لشبونة التي في البطاقات البريدية. لا يوجد فيها ترام أصفر ولا بلاط أزرق ولا سياح فيها عمارات رمادية، و محطة قطار قديمة وسكة حديدية صدئة تشق الحي نصفين.

وصلنا الساعة الثانية ظهرا. الشمس كانت حادة بعد مطر الأمس، و الهواء رائحته زيت قديم وقضبان حديد ساخنة.

(غابرييل) كان يحمل الصورة بالأبيض والأسود ليوهان وكلارا مطوية في جيبه والتذكرة الصفراء الممزقة في يده اليسرى كأنه يخاف أن تطير، والوشاح الأزرق الذي الآن حول رقبتي. أنا كنت أحمل علبة البسكويت المعدنية. 11 رسالة أصبحت 12 مرة أخرى بعد أن أعدنا رسالة الساعة السادسة للعلبة.

سألنا عن الحادث. دخلنا قهوة صغيرة أمام المحطة. الناس لا تتذكر.

1998 كان بعيدا جدا.

قال لنا بائع جرائد عجوز يجلس أمام القهوة:

"حادث القطار؟ آه نعم. كان قطار **Sintra** القديم.خرج عن السكة هنا، عند المنعطف الكبير.

قالوا إن السبب كان أمطاراً غزيرة وانهيار صغير. مات فيه السائق وثلاثة ركاب. لا أحد يزور المكان يا بنتي. نحن ننسى بسرعة هنا في**Benfica**."

سألته: "هل تتذكر إذا كان هناك أجنبي؟ أشقر؟ طويل؟"

هز رأسه: "يا بنتي، كل الأجانب كانوا يمرون من هنا في التسعينات. ألمان، روس، أوكرانيون يأتون للبناء. لا أتذكر."

ذهبنا للمنعطف. يجب أن نمشي عشر دقائق بين العمارات. مكان مهجور تماما، لا يوجد رصيف، مليء بالأعشاب الطويلة الصفراء التي تصل لركبتي، وعلب البيرة الفارغة، وكتابات على الجدران. لا يوجد نصب تذكاري، لا ورد، لا شيء يدل على أن أربعة أشخاص ماتوا هنا.

السكة نفسها قديمة، صدئة، لكنها ما زالت تستعمل. كل نصف ساعة يمر قطار سريع ويهز الأرض.

(غابرييل) جلس على القضبان. لم يهتم أن بنطاله الأسود سيتسخ بالزيت،وضع يده اليمنى على الحديد الساخن من الشمس وبقي.

قال بصوت منخفض جدا: "هنا مات. هنا بالضبط."

قلت فجأة: "غابرييل، يجب أن نتأكد. الكلام ليس كافيا، نذهب للشرطة. سجلات 1998 ما زالت موجودة في أرشيف الحوادث. أبي كان شرطيا، أعرف أنهم لا يرمون السجلات قبل 50 سنة.

مركز شرطة Benfica كان مبنى صغيراً أصفر، بابه مفتوح ومروحة قديمة تصدر صوتا عالياً في الداخل.

شرطي شاب، لا يتجاوز 25 سنة، نظر إلينا كأننا مجنونان عندما قلنا "حادث 1998."

قال: "حادث 1998؟ هذا قبل أن أولد أنا. اذهبوا للأرشيف المركزي في لشبونة."

لكن رئيسه، رجل في الخمسين، بدين، يشرب قهوة، كان يسمعنا من مكتبه. سمع التاريخ.

قال: "15 أكتوبر 1998؟"

توقفنا.

قال: "أنا كنت هناك. كنت شرطيا جديدا،أول حادث أخرج فيه جثث. أتذكره كأنه أمس لأنني لم أنم بعده لمدة أسبوع."

أدخلنا لغرفة أرشيف صغيرة جدا وراء المكاتب، رائحتها رطوبة وورق قديم، مثل قبو الأرشيف الوطني لكن أسوأ. لا يوجد تكييف،فيها رفوف حديدية عليها سجلات كبيرة من الورق المقوى، كل سجل لسنة.

فتح سجل 1998. غبار كثير،بدأ يقلب الصفحات ببطء، يده ترتجف قليلا. كان يبحث بتاريخ.

وجدها، صفحة مكتوبة بخط يد سريع.

قرأ بصوت عال، ببرتغالية بطيئة:

"18:07 – 15/10/1998 – خروج قطار رقم 4421 Sintra–Rossio عن السكة –Benfica– 7.3km.

السبب: انهيار أرضي صغير بسبب الأمطار الغزيرة.

الوفيات: 4.

1.مانويل سيلفا – السائق – 52 سنة – متزوج

2.ماريا جواو لوبيز – 71 سنة – متقاعدة

3.آنا صوفيا كوستا – 8 سنوات – تلميذة

4.ذكر مجهول الهوية – حوالي 30 سنة – أجنبي – أشقر – طويل – لا يحمل أي أوراق هوية – يحمل حقيبة سفر بنية واحدة قديمة – بدون آلة موسيقية – ملابس: معطف أسود طويل."

توقف الشرطي، نظر إلينا.

قال: "المجهول... لم نعرف من هو أبدا لم يطالب به أحد. لا سفارة سألت عنه. دفناه في مقبرة الفقراء فيBenfica.مقبرة رقم 3. بلا اسم.

(غابرييل) وقف وجهه أبيض تماما رغم حرارة الشمس التي كانت على وجهه قبل دقيقة.

قال بصوت غريب: "آنا صوفيا كوستا؟ طفلة عمرها 8 سنوات ماتت؟ أنا كنت أظن أن القطار كان فارغا..."

الشرطي العجوز نظر للسجل مرة أخرى، وقرأ ملاحظة صغيرة جدا في الهامش الأسفل، مكتوبة بقلم حبر مختلف، أسود، كأنها أضيفت بعد أيام.

قرأ:

"ملاحظة إضافية بتاريخ 1998/10/18: شهادة سيدة ناجية – السيدة إيزابيلا سيلفا – 34 سنة – أم الطفلة المتوفاة آنا صوفيا – قالت في المستشفى إن الرجل الأجنبي الأشقر الذي كان يجلس بجانبها دفع ابنتها الصغيرة بقوة من باب القطار قبل أن ينقلب بدقيقة. الباب كان مفتوحا بسبب الخلل. الابنة الثانية نجت عمرها 6 سنوات،اسمها ليتيسيا. الرجل الأجنبي لم ينج بقي داخل القطار."

أنا وضعت يدي على فمي لم أستطع أن أتكلم.

يوهان...أو من كان...لم يمت وهو يكره كلارا. لم يمت وهو يظن أنها خذلته ولم تأت للرصيف 3 مات وهو ينقذ طفلة عمرها 6 سنوات لا يعرفها.

(غابرييل) أخذ السجل من يد الشرطي بيدين ترتجفان،قرأ الملاحظة مرة أخرى، مرة ثانية، ثالثة بصوت عالٍ هذه المرة لنفسه.

ثم قال بصوت لم أسمعه من قبل طوال معرفتي به ليس باردا، ليس ساخرا، ليس غاضبا.صوت طفل عمره 10 سنوات.

"أمي كانت تنتظر رجلا أنقذ طفلة،وأبي كان يظنه مجرما يحرق المسارح. وأنا...أنا كرهت أمي 20 سنة لأنني ظننتها باردة ولا تحب أحدا."

خرجنا من مركز الشرطة. الشرطي العجوز قال لنا أين مقبرة الفقراء، لكننا لم نذهب، لم نكن مستعدين لنرى قبرا بلا اسم.

ذهبنا وجلسنا على القضبان مرة أخرى،هذه المرة جلسنا معا، كتفنا يلمس كتف الآخر الشمس بدأت تميل.

أخرجت الرسالة رقم 8، التي لم نقرأها بعد منذ الأمس. كانت رسالة قصيرة جدا، ورقها نظيف

"كلارا،

اليوم بعت التشيلو

صاحب المحل قال إنه يساوي ثمن تذكرتين إلى برلين، أنا لا أريد الذهاب لبرلين بدونك،

سأشتري به تذكرة واحدة إلى أي مكان تريدينه أنتِ

أنتِ اختاري.

ي."

(غابرييل) ضحك فجأة، ودموعه تنزل على خديه وتلمع مع الشمس:

"باع التشيلو... هذا الأحمق باع التشيلو... التشيلو كان حياته كلها"

قلت له وأنا أبكي أنا أيضا: "لا، هي كانت حياته،أنت كنت حياته."

لففت الوشاح الأزرق الذي حول رقبتي حول رقبته هو أيضا أصبح الوشاح حولنا نحن الاثنين،أصبحنا مربوطين به.

قلت: "غابرييل، ماذا لو لم يمت؟ ماذا لو أن المجهول ليس هو؟ ماذا لو أنه نجا و..."

قاطعني وضع يده على فمي بلطف، يده لم تعد باردة.

قال: "لا، لا تعطيني أملا كاذبا،أمي ماتت وهي تظن أنه تركها، إذا كان حيا، فهذا أسوأ،يعني أنه تركها حقا بإرادته."

ثم أخرج تذكرته الممزقة من جيبه. تذكرة **Sintra–Rossio** الصفراء.

قال: "انظري هذه التذكرة ممزقة من النصف ليس لأن القطار انقلب. عندما ينقلب القطار، تتمزق الثياب، تتمزق الحقائب، لكن التذكرة الورقية تبقى في الجيب. هذه ممزقة بيد بعناية كأن أحدا أراد أن يلغيها، أن يقول: لن أذهب."

نظرت للتذكرة،كان محقا، ممزقة بخط مستقيم ونظيف، ليس صدفة.

من مزقها؟ يوهان نفسه قبل أن يدفع الطفلة ويموت؟ أم شرطي وجدها في جيب الجثة ومزقها لأنه لا يحتاجها؟

في تلك اللحظة بالضبط، رن هاتفي، رقم غريب من ألمانيا **+49**

فتحت الخط ويدي ترتجف.

صوت امرأة عجوز يتكلم إنجليزية بلكنة ألمانية ثقيلة وواضحة.

"Hello?

هل أنتِ إيلينا رييس؟ أنا السيدة مولر من أرشيف أوبرا برلين أرسلتِ لنا إيميلا قبل يومين عن يوهان أدلر ؟ عازف التشيلو؟"

قلبي توقف،غابرييل نظر إلي.

"!نعم! نعم أنا"

"سيدتي، يوهان أدلر لم يمت سنة 1998. لدينا سجل أنه عاد لبرلين سنة 1999. كان مريضا، عزف في أوركسترا صغيرة فيKreuzberg. وتوفي سنة 2015.ط بسرطان الرئة،لدينا عنوان أرملته."

سقط الهاتف من يدي على قضبان القطار الساخنة، صوتها ارتطم بالحديد.

غابرييل التقطها بسرعة.

سمع الخبر كله، وجهه تغير من الأبيض للأحمر.

نظر إلي، نظرت إليه.

الرجل الذي مات فيBenfica لم يكن يوهان.

إذن من هو الرجل الأشقر الطويل الذي كانت تنتظره كلارا على الرصيف 3؟ ومن هو الرجل الذي مات وهو ينقذ طفلة عمرها 6 سنوات؟

والأهم... إذا كان يوهان عاش حتى 2015، لماذا لم يعد أبدا لكلارا؟ لماذا تركها تنتظر 17 سنة أخرى حتى ماتت؟

"أعتقد أنه يجب أن نذهب لبرلين الآن."

بيت كلارا

لم نذهب لبرلين في اليوم التالي ذهبنا بعد ثلاثة أيام.

لأن (غابرييل) قال جملة لم أتوقعها أبدا وهو ما زال جالسا على قضبانBenfica الساخنة،والهاتف في يده، وصوت المرأة الألمانية ما زال يرن في أذني: "يوهان عاش حتى 2015."

قال:

"إذا كان يوهان عاش 17 سنة أخرى ونسي أمي، فأنا لا أريد أن أكون يوهان الثاني لا أريد أن أنسى لشبونة ولا أريد أن أنساكِ."

نظر إلي والوشاح الأزرق ما زال يلفنا نحن الاثنين، وحوله غبار السكة.

"إيلينا، ابقي معي الليلة لا تذهبي لشقتك فيMouraria ابقي هنا في بيت أمي لا أريد أن أبقى وحيدا في هذا البيت البارد الليلة."

لم يكن يطلب شيئا وقحا كان يطلب أن لا ينام وحده في بيت ماتت فيه أمه.

قلت: "نعم"

نمنا تلك الليلة في بيت كلارا فيAlfama بيت البلاط الأزرق المتشقق الذي كنت أظنه باردا و قاسيا عندما جئت للعزاء أول مرة.

هذه المرة عندما فتح الباب لم يكن باردا.

البيت كان كما تركته (كلارا). مرتب بشكل غريب، كأن صاحبته ستعود لا غبار ، (غابرييل) كان يأتي وينظف كل أسبوع رغم أنه يقول إنه يكره البيت.

هو نام على الأريكة في الصالة و أنا نمت في غرفة كلارا، لم أرد أن أنام في غرفة الضيوف.

غرفتها صغيرة، سرير واحد حديدي، خزانة خشب، وطاولة زينة عليها مرآة كبيرة على الطاولة،

صورة لغابرييل وهو طفل عمره 6 سنوات، يلبس قميصا أبيض ويمسك خبزة كبيرة ويضحك ، وفرشاة شعر خشبية قديمة، وشال، وعلبة صغيرة من الخشب، مثل علب المجوهرات.

فتحتها بدافع فضول المرممة، ليس فضول امرأة.

كان فيها زر واحد فقط.

زر خشبي كبير، أسود، فاخر، ثقيل. ليس زر بلاستيك عليه حرف Y محفور بخط جميل.

لم يكن زر أبيه. أبوه كان موظف بريد، يلبس أزرارا بلاستيكية بنية رخيصة. أنا رأيت معطفه في العزاء. هذا زر من معطف موسيقي، معطف طويل غالٍ.

قلبته في الخلف، خيط أزرق صغير ما زال عالقا فيه كأن أحدا قطعه بسرعة.

أخذته ونمت وهو في قبضتي ، لم أخبر غابرييل تلك الليلة.

في الصباح استيقظت على رائحة قهوة ، ليست قهوة سريعة. قهوة مطحونة على النار.

(غابرييل)كان في المطبخ الصغير يلبس قميصا أبيض بسيطا، قطني، بأكمام مطوية. لأول مرة منذ عرفته في العزاء، لا يلبس أسود. شعره مرفوع للخلف، ووجهه بدون لحية. بدا أصغر بعشر سنوات وبدا... لشبونيا

يده التي تمسك إبريق القهوة ترتجف قليلا.

قال دون أن يلتفت، كأنه عرف أنني استيقظت من صوت خطواتي على البلاط:

"حجزت تذكرتين ليس تذكرة واحدة ممزقة مثل يوهان. تذكرتين ذهاب وعودة. لشبونة – برلين. اليوم الساعة السادسة مساء، نفس ساعة قطار يوهان في التذكرة."

ابتسمت وجلست على كرسي المطبخ.

المطبخ يطل مباشرة على نهر تاغوس لم ألاحظ ذلك من قبل. كانت كلارا ترى النهر كل يوم وهي تعجن الخبز، كانت تراه وهي تنتظر.

قلت: "هل هذه صدفة؟ الساعة السادسة؟"

قال وهو يصب القهوة، وجلس أمامي، ركبتاه تلامس ركبتي تحت الطاولة الصغيرة:

"أنا مهندس صوت، لا أؤمن بالصدف،أؤمن بالتكرار نفس الأخطاء، نفس الألحان، تتكرر بنفس الساعة إذا لم يوقفها أحد."

شربنا القهوة بصمت، نظرت ليده كانت هناك حروق صغيرة قديمة على أصابعه. سألته: "من ماذا هذه؟"

قال: "من جهاز تسجيل قديم في برلين كنت أصلحه وأنا صغير."

قلت له بتلقائية: "أنت دائما تصلح أشياء قديمة."

قال وهو ينظر إلى عيني مباشرة: "وأنتِ دائما ترممين رسائل قديمة،نحن نفعل نفس الشيء."

في تلك اللحظة، فهمت لماذا أرتاح معه نحن الاثنان لا نرمي الأشياء المكسورة.

بعد القهوة، أريته الزر.

فتحت يدي الزر الخشبي بحرف Y في الوسط.

تجمد.

قال: "أين وجدتِ هذا؟"

قلت: "في علبة صغيرة على طاولة زينة أمك."

أخذه، قلبه،رأى الخيط الأزرق.

قال بصوت هادئ جدا: "هذا... هذا زر معطف يوهان في الصورة التي معنا، معطفه كان به نفس الأزرار. أمي... احتفظت به."

لم يبك ،ابتسم.

ابتسامة حزينة جدا، لكنها ليست باردة .

قال: "أمي التي كنت أظنها باردة، كانت تخبئ زر رجل في علبة مجوهراتها كانت تحبه لدرجة أنها سرقت زرا من معطفه."

ثم نظر إلي، ولأول مرة منذ ثلاثة أيام، ضحك ضحكة حقيقية، قصيرة.

قال: "تعرفين ماذا يعني هذا؟ يعني أن أمي كانت مجنونة مثلكِ. تجمعين صناديق الأرشيف سرا في شقتك، وهي تجمع أزرار رجال غرباء."

قلت: "أنا لست مجنونة!"

قال: "بل أنتِ مجنونة. ومجنونة جميلة."

سكتنا. كلمة "جميلة" بقيت معلقة في مطبخ كلارا الصغير، فوق بخار القهوة.

لم يعتذر عنها ولم أسأله أن يعتذر.

قام وغسل الفنجانين وأنا بقيت أنظر لظهره قميصه الأبيض، كتفاه العريضان اللذان كانا دائما متوترين ، اليوم كانا مرتخيين.

قال وهو يغسل الصحون: "إيلينا، شكرا لأنكِ بقيتِ."

قلت: "شكرا لأنك طلبت مني أن أبقى."

في الساعة الخامسة، قبل أن نذهب للمطار، فعلنا شيئا لم نخطط له.

فتحنا كل نوافذ بيت كلارا. البيت الذي كان مغلقا لشهرين منذ موتها،دخل هواء المحيط كله،الستائر البيضاء طارت، رائحة الرطوبة خرجت.

غابرييل قال: "أمي كانت تكره البيوت المغلقة ،أبي كان يغلق كل شيء خوفا من اللصوص، هي كانت تفتح كل شيء."

وقفنا في الوسط.

البيت يتنفس .

قال: "عندما نعود من برلين، ما رأيك أن أبيع هذا البيت؟"

قلت: "لا أعرف"

قال: "أنا لا أريد أن أبيعه الآن،أريد أن أبقيه مفتوحا قليلا بعد."

فهمت أنه لا يتكلم عن البيت.

في الطريق للمطار، في التاكسي، وضع يده على يدي ليس ليدفئها ،بل ليقول: أنا هنا.

ولم أسحبها.

لأننا كنا نعرف أننا ذاهبان لبرلين لنبحث عن قبر رجل، لكننا في الحقيقة، كنا ذاهبين لنعرف هل يمكن لرجل أن ينسى امرأة أحبها 17 سنة، وهل يمكن لامرأة أن تسامح رجلا نسيها.

ولم نكن نعرف أن الجواب سيكون في لحن يعزف كل يوم دون أن يعرف صاحبه لماذا يعزفه.

.

اللحن الذي لا ينسى

في مطار لشبونة، ونحن ننتظر الطائرة، كنت أقرأ كتابا عن ترميم الوثائق لأخفي توتري. الطيران يخيفني.

غابرييل لاحظ.

لم يقل "لا تخافي". لم يقل أي جملة سخيفة.

فقط أخرج من حقيبته سماعة صغيرة، سماعة مهندس صوت احترافية، ووضعها على أذني.

قال: "اسمعي."

سمعت... صوت محطة روسيو، الصوت الذي سجله بهاتفه قبل ثلاثة أيام. صوت القطارات، صوت المذيع، صوت عامل النظافة وهو يدفع عربته، وصوتنا نحن ونحن نتكلم.

قال: "أنا أسجل كل شيء مهم لأنني أخاف أن أنسى هذه عادتي منذ أن تركت لشبونة."

أزال السماعة بلطف، أصابعه لمست أذني. لمست خدي للحظة.

قال: "أنتِ مهمة الآن. سأسجلكِ أنتِ أيضا."

احمر وجهي.

أنا الإسبانية التي لا تثق بالناس، احمر وجهي بسبب سماعة .

برلين كانت عكس لشبونة تماما.لا تلال، لا ضباب محيط، لا ترام أصفر. مدينة مسطحة، رمادية، منظمة، باردة.

لكنها تشبه (غابرييل) باردة من الخارج، لكنها تخفي حربا قديمة في الداخل.

عنوان أرشيف برلين الموسيقي أعطانا اسما: مستشفى Charité قسم الحوادث العصبية 1998–1999

ذهبنا هناك سجلات قديمة.

ممرضة عجوز ألمانية، اسمها ماري بيكر، تذكرت.

"يوهان آدلر ؟ نعم.

جاء إلينا في نوفمبر 1998. شرطة برلين وجدته في محطة قطارات، ينام على الرصيف. لا يحمل أوراق. يقول إنه يبحث عن امرأة اسمها كلارا، وشاحها أزرق. كان مصابا في رأسه. ارتجاج قوي،فقدان ذاكرة جزئي."

قلبي سقط.

"ماذا تذكر؟ وماذا نسي؟"

قالت: "نسي كل شيء حدث بعد أكتوبر 1998. نسي لشبونة، نسي كلارا،نسي الحادث. تذكر فقط طفولته واسم التشيلو. بقى عندنا 4 أشهر ثم جاء رجل قال إنه أخوه وأخذه."

غابرييل سأل: "هل عزف مرة أخرى؟"

قالت الممرضة: "نعم. بعد سنة، بدأ يعزف مرة أخرى لكنه لم يعد يعزف نفس الموسيقى كان يعزف لحنا واحدا فقط، كل يوم. لحن حزين، بلا نهاية كان يقول إنه سمعه في حلم. لحن لامرأة بوشاح أزرق."

أخرجت هاتفها القديم، وبحثت في يوتيوب. كتبت **Johann Adler Berlin 2010**

ظهر فيديو. رجل أشقر، شعره أبيض الآن، نحيف، يعزف تشيلو على مسرح صغير, نفس ملامح الصورة التي معنا، لكنه أكبر، متعب.

وكان يعزف.

نفس اللحن. لحن حزين، بسيط، كأنه نشيد أطفال برتغالي قديم, لحن فادو.

غابرييل أغلق عينيه هو مهندس صوت، يفهم اللحن.

قال هامسا: "هذا لحن كانت أمي تغنيه لي عندما كنت طفلا كانت تغنيه وأنا أنام،لم أسمعه منذ 25 سنة نظرت له ،عيناه مغلقتان، ودمعة تنزل."

هذا هو اللغز الأخير.

(يوهان) لم ينس كلارا. جسده نسي، لكن يده التي تعزف التشيلو لم تنس. ظل يعزف لحنها 17 سنة، دون أن يعرف لماذا.

الممرضة قالت: "مات سنة 2015. وحيدا،لم يتزوج.

في شقته وجدوا صندوقا صغيرا فيه تذكرة قطار ممزقة، وصورة لامرأة لا نعرفها."

غابرييل نهض، كان يرتجف.

قال: "أين دُفن؟"

ذهبنا للمقبرة. مقبرة صغيرة في ضواحي برلين، مليئة بالثلج الخفيف، رغم أننا في سبتمبر. برلين باردة دائما

قبر بسيط: ***Johann Adler 1969–2015 – Musik war seine Sprache***

الموسيقى كانت لغته.

وضع (غابرييل) الصورة التي معنا، صورة أمه ويوهان على نهر تاغوس، على القبر

ووضع بجانبها الزر الخشبي الذي وجدته في غرفة كلارا. زر معطفه.

ثم فعل شيئا لم أتوقعه.

أخذ الوشاح الأزرق من رقبتي، من رقبتنا، وطواه بعناية، ووضعه على القبر أيضا

قال: "هذا ليس لنا، هذا لهما."

بقينا صامتين. الثلج الخفيف ينزل على شعرنا.

ثم نظر إلي لأول مرة منذ عرفته، لم يكن ينظر إلي كمرممة وثائق وجدت رسائل أمه، ولا كفتاة إسبانية هاربة

نظر إلي كرجل ينظر لامرأة.

قال: "إيلينا، أنا قضيت 10 سنوات في برلين أهرب من لشبونة. وأنتِ قضيتِ 8 أشهر في لشبونة تهربين من مدريد. يوهان وكلارا انتظرا في محطتين مختلفتين وضاعا."

اقترب خطوة. الثلج على كتفيه الأسود،وقال:

"أنا لا أريد أن أنتظر في محطة روسيو، ولا أريدكِ أن تنتظري في أرشيف الموتى."

مد يده، مسك وجهي. يده كانت دافئة جدا.

"هل تسمحين لي أن أبقى؟ ليس في برلين. في لشبونة. معكِ."

لم أجب بالكلام، لأن الورق لا يكذب، لكن الناس يجب أن تتعلم كيف تقول الحقيقة بدون ورق.

فاقترب وقبلني فوق قبر رجل أحب أمه وانتظرها ومات وهو يعزف لحنها دون أن يتذكر اسمها.

قبلة طويلة، بطعم قهوة A Brasileira و مطر Benfica وملح تاغوس.

عندما ابتعدنا، كان الثلج قد غطى الوشاح الأزرق على القبر.

غابرييل قال وهو يضحك، لأول مرة يضحك بصوت عال:

"السيدة كوستا ستطردكِ من الأرشيف لأنكِ سرقتِ 12 رسالة."

قلت: "لا أعتقد انها ستفعل عندما تسمع القصة، لكن سأضيف لها رسالة رقم13 ."

غابرييل: "ماذا ستكتبين فيها؟"

سأكتب: *"كلارا، يوهان لم ينسكِ. كان يعزفكِ كل يوم."*

أمسكنا أيدي بعضنا وعدنا نحو محطة القطار. ليس قطار الساعة السادسة. قطار عادي يذهب للمطار. للعودة للشبونة.

لأن الحب الضائع الذي جئنا نبحث عنه، وجدناه، لكنه لم يكن حب يوهان وكلارا.

كان حبنا نحن.

فرن الساعة السادسة

عدنا للشبونة في قطار الساعة السادسة. ليس قطار روسيو–Sintra.قطار برلين – لشبونة .

مع توقف طويل في مدريد.

في مدريد، (غابرييل) طلب مني أن ننزل لساعة واحدة. قال: "أريد أن أرى المدينة التي هربتِ منها."

أخذته لحي Malasaña حيث كنت أسكن مع دانييل. نفس المقهى الذي كان يقول لي فيه "أحبك"

وهو ينظر لهاتفه.

جلست هناك على نفس الطاولة، وقلت لغابرييل القصة كاملة. كيف خطيبي تركني قبل الزفاف بشهر لأنه قال إنني "هشة جدا وذكية جدا و الاثنان معا متعبان."

غابرييل لم يقل "هو أحمق"،لم يواسني بجمل جاهزة.

قال فقط: "هشة وذكية جدا. هذا بالضبط ما أحتاجه لترميم بيت قديم فيAlfama هل تقبلين الوظيفة؟"

ضحكت.

لأول مرة أضحك على قصة دانييل.

قلت: "ما هي الوظيفة؟

قال: "أن ترممي رجلا يلبس أسود دائما ويعتقد أن أمه كانت باردة."

عدنا للطائرة يدي في يده. تذكرتا الذهاب والعودة التي حجزها أصبحت الآن تذكرتين باتجاه واحد فقط للشبونة.

لشبونة استقبلتنا بنفس الضباب الذي تركناها فيه لكن هذه المرة، الضباب لم يكن حزينا،كان كغطاء خفيف.

بيت كلارا في Rua dos Remédios 22 كان مغلقا.

غابرييل فتح المخبز المغلق تحت البيت. المخبز الذي كان لأبيه. الفرن حجري، قديم، مغطى بالغبار منذ 20 سنة.

قال: "أبي أغلق المخبز سنة 1999، بعد حادث القطار بسنة. قال إنه لم يعد يحب رائحة الخبز."

مسحت الغبار عن الطاولة الخشبية. وجدت شيئا محفورا تحت الغبار. حفر صغير، بسكين.

C + Y – 1998

كلارا ويوهان حفراها هنا، في مخبز زوجها.

(غابرييل) لم يغضب هذه المرة. لمس الحفر بأصابعه.

قال: "إيلينا، ما رأيك أن نفتحه مرة أخرى؟"

"مخبز؟"

غابرييل:"لا، ليس مخبزا. أرشيف"

أخذ علبة البسكويت المعدنية أفرغها من الرسائل الـ 12 ووضعها في وسط المخبز، ثم أخذ الصورة التي أعطانا إياها السيد أليدا، والتذكرة الممزقة، ووضعها بجانب العلبة

وقال: "هذا سيكون مكاننا. نبيع قهوة مثل A Brasileira ونضع الرسائل هنا.

أي شخص يمر ويشعر أنه ينتظر أحدا في محطة روسيو، يقرأها."

قلت: "والرسالة رقم 13؟"

جلست على الأرض، وأخذت ورقة نوتات موسيقية فارغة، نفس نوع ورق يوهان، كنت قد سرقتها من الأرشيف الوطني.

وكتبت، بخطي الإسباني المتعجل:

"إلى كلارا ويوهان،

أنا إيلينا، التي وجدت رسائلكما في صندوق مخصص للإتلاف وأنا غابرييل، ابن كلارا الذي ظن أن أمه لم تحب أحدا.

نريد أن نقول لكما: لقد انتظر كل منكما الآخر في محطة خاطئة. كلارا انتظرت على الرصيف 3، ويوهان انتظر في مستشفى في برلين وهو يظن أن اسمكِ لحن.

لكن الحب لم يضع لأننا وجدنا بعضنا بسببكما.

يوهان، لم تكن مجرما، كنت بطلا أنقذت طفلة لا تعرفها وكنت عازفا باع تشيلو ليشتري تذكرة حب.

كلارا، لم تكوني باردة. كنتِ شجاعة. انتظرتِ 4 ساعات تحت المطر، واحتفظتِ بالوشاح الأزرق 20 سنة.

سامحا بعضكما. وسامحا زوجكِ، مدير البريد، لأنه كان خائفا مثلكما.

الآن، وشاحكِ الأزرق يا كلارا بقي في برلين، على قبر يوهان، يغطيه الثلج. أما نحن، فاشترينا وشاحا أزرق جديدا،رخيصا، لا يحمل رائحة قهوة ولا مطر، لكي نبدأ حكايتنا نحن.

سنضعه هنا، في مخبزكِ، ليتدفأ به أي عاشق يمر.

الساعة الآن السادسة لكننا لن نركب أي قطار. سنبقى هنا.

إيلينا وغابرييل."

طوينا الرسالة ووضعناها في العلبة. أصبحت 13 رسالة.

بعد شهر.

المخبز لم يعد مخبزا.أصبح اسمه "A Brasileira dos Cartas"– برازيلية الرسائل.

نبيع قهوة وحليب، وخبزا أخبزه أنا كل صباح الساعة السادسة، بنفس الطريقة التي كانت تخبز بها (كلارا). وغابرييل، الذي ترك هندسة الصوت، أصبح يصلح أسطوانات فينيل قديمة ويضع موسيقى تشيلو هادئة طوال اليوم.

الطاولة رقم 7 من مقهى A Brasileira أحضرها لنا السيد أليدا هدية. قال:

"هذه الطاولة لم تعد لنا، هي لكم."

والناس تأتي. ليس كثيرا، لكنهم يأتون.

تأتي فتاة تبكي لأن حبيبها لم يرد على رسالتها، فتعطيها الرسالة رقم 6 لتقرأها. وتفهم أن الخوف ليس كرها.

يأتي رجل عجوز يبحث عن حب قديم، فيقرأ الرسالة رقم 12 ويبكي.

وكل يوم، الساعة السادسة مساء، نوقف الموسيقى. ونقرأ رسالة واحدة بصوت عالٍ، أنا وغابرييل، بالتناوب.

والبارحة، حدث شيء.

كنت أقرأ الرسالة رقم 11 تلك التي تقول "سأتعلم كيف أخبز الخبز مثلك."

دخلت امرأة عمرها حوالي 35 سنة، تحمل طفلة صغيرة. سمعت الرسالة، وتوقفت.

قالت: "هذا اللحن... أمي كانت تغنيه لي."

كانت هي... ليتسيا ، الطفلة التي أنقذها يوهان في قطار Benfica سنة 1998.

التي كانت عمرها 6 سنوات و أصبحت الآن 35 سنة.

قالت إن أمها، السيدة إيزابيلا سيلفا، الناجية من الحادث، ماتت العام الماضي، وكانت تخبرها كل يوم: "رجل أشقر دفعكِ من القطار قبل أن ينقلب. لم نعرف اسمه."

أعطيناها الرسالة رقم 13. وقصنا عليها كل شيء.

بكت ثم أخرجت من حقيبتها شيئا.

كان تشيلو صغيرا، لعبة أطفال.

قالت: "أمي اشترت لي هذا بعد الحادث. قالت: هذا للرجل الذي أنقذك. كنت أحتفظ به 27 سنة."

وضعنا التشيلو الصغير بجانب علبة البسكويت.

الآن، في مخبز كلارا، يوجد 13 رسالة، وصورة بالأبيض والأسود، وتذكرة ممزقة، ووشاح أزرق جديد، وتشيلو صغير.

وكل يوم الساعة السادسة، لا يأتي قطار ولا يذهب قطار.

يأتي حب جديد، لأنه قرأ كيف مات حب قديم.

والساعة الآن السادسة ودقيقة والخبز لم يحترق.

تمت الحمد لله

2026/09/22